

في ربيع اليأس

لربيع الرمالي

اليأس ، مثل كل حس بشري ، يتنوع ويتفاوت في الناس . فقد يأس الفلاح مثلاً من جفاف في الطقس حرق زرعته ، او من وباء ذهب بمراشيه . وقد يأس الفيلسوف من نظرية يعالجها لاستئصال الوباء ، او من آلة اخترعها للسيطرة على الجو والمطر . وكذلك يختلف يأس الشاعر عن يأس القتال . وكذلك قل في يأس المجرمين ويأس الانبياء ، اي في ماتحت وما فوق يأس جميع الناس اعود بك الى امثلة من اليأس الاعلى الذي لا يزال نوره يتبع في العالم ، الى المسيح في الجثمانية ، والنبي محمد في الكهف ، والرسول بولس في مركب تنقاذة الامواج ، والشاعر دانته في المنى شريداً طريداً ، وابي العلاء المبري في محبسيه - فهل كان يأس هولاير ، يا زرى ، مثل يأس جيرانهم الفلاحين والنوتيين والعشارين او مثل يأس زملائهم الادباء والشعراء ؟

وهل يأس الاديب الشاعر الذي ينتهي في قصيدة بنظمها ، او تنقيد اشواقه اليوم بتقريظ في جريدة ، او بعشاء على مائدة امير ، او بظفر في حفلة راقصة ، مثل يأس من له سلمه لوائي من الاشواق والآمال ؟

قد يكون الجوهر واحداً . ولكن الكمية ، واللون ، والبيئة ، وما يتصل بالبيئة من سابق ولاحق في الحياة ، تختلف كلها اختلاف الآمال والاشواق في الناس ، واختلاف الثروة الروحية في الافئذ من الناس

كان ليأسي شتاء ، وكنت فيه الاديب المجاهد في سبيل - المجد ا

ألا في سبيل المجد ما انا فاعل ...

وكنت بين كني واوراقي وصوري وتمني القبة كالتأند لجيش صاحب متمرده . وما الفائدة من السلاح والذخيرة - من القلم والافكار ، ومن العلوم كلها ؟

ماذا تفيدك الرياضيات وانت لا تمرى في اية دورة من الفلك تسئل النجدة ؟ ولا حرب بلا مال .
وماذا تفعلك الفيزيولوجيا وانت لا تستطيع ان تسلم قلبك المكسور او قلب المحرّب القاسي ؟
وماذا تفيدك معرفة البلدان وانت عاجز عن السفر الى حيث تخلف تكاليف الحياة وتعمم جنباتها ؟
وماذا تفعل الفلسفة وانت في لُجج الاحزان من اضعف الناس ؟ وما الفائدة في الطب وشرائبه قلبك
ترداداً تصلياً يوماً فيوماً ، او المكروب يضتك برئيتك ؟ وما نفع الفنون الجميلة كلها والعالم كله في
لظرك هو لوحة تميز في مدرسة الفنون العليا ؟

كان ليأسي شتاءً ، وكنت فيه الاديب العالم المجاهد في سبيل — المجد والشهرة ! ولكن ذلك
اليأس فتح امامي باباً من ابواب الحياة كنت اجهلها

خرجت ذات يوم من بيتي ، من غرفتي التي كفتت فيها اعز عزيز لدي . بل خرجت من الغرفة
ليلاً لا لي لم اطق ان ارى ما كنت اتمنجه امامي : تابوت احلامي ، فررت منه في ليلة طامسة . وكان
الثلج يتساقط علي ، ويترام تحت قدمي ، ويتجمد الماء بين جنبي . وكنت ، لتاره الكثيف
والرياح التي انحت تحتها رقبتي ، لا ارى غير موطئ قدمي . فتصادمت في تلك الساعة وشخصاً
آخر حاله في العاصفة مثل حالي ، فاعتذرت . وكان الصوت الآخر المعتذر صوتاً ناعماً وقيماً ، انقطع
مرتين في كلتين : « لا تؤاخذني » . هو صوت فتاة بالغة شريفة ... جمع التاج والميل بيننا ، وربطت
العاصفة قنيننا ...

سرت بها الى بيتي ، الى غرفتي التي تركت فيها تابوت احلامي . واجلسنا بين كتي وادواتي
وصوري النسبة والتذكريه . فقالت فوراً . ليتها تؤكل افاخرجت كل ما في الخزانة الصغيرة ، فأكلت
وهي لا تزال ترمش من البرد . فشببت النار ، ولم يكن عندي ما يكفي من التجمد فأشعلت سرفاً
من الاسفار

واناني لهيب تلك الصفحات احلامي . وانسيتي البائسة الشريفة الضالة المشردة . ثم من
الحياة اأتمثل هذا البؤس وهذه الآلام تكون ، وانا وامثالي ، بين الكتب والاوراق والالاعيب
القنية ، نشد الشهرة والمجد ، ونود ان نحرق المدينة ، ونمزق بالناي شل نيرون فرق طولها ، لانها
لا توالبنا ولا تفتح لنا ابواب قصورها ؟

كنت والبائسة تلك الليلة كآدم وحواء — آدم وحواء لا في الفردوس ، بل في الجحيم . وفي
تلك الليلة تحولت بأسي ، وتضاعفت احزاني . لم أفكر بعد ذلك بضالتي المشردة ، واعمي من مخيلتي
دسم تابوتها . بيد اني انتقلت الى الحياة الكبرى التي تقبأرى فيها المحاسن والمآثم ، والذات
والآلام . ثم من نير الحياة الذي يقرن العمق بالقضية والبؤس بالجمال

تحولت بأسي كما تحولت السوداء فتصير فراشة . فوددت لو كان في امكاني ان اخرج حواء وآدمها
— كل امرأة وكل رجل — من جحيم هذا الزمان ، وأعود بهما الى الفردوس الاول . هيهات

هيئات ! وكان هذا اليأس في قضي احتر من نار الجحيم ، وآلم من كل ما قاسيته من الآلام .
فلا عجب اذا فررت منه . فررت هارباً من آدم وجواه في الجحيم . هربت من المدينة ، ومن
المدينة - جحيمها

هربت الى البادية ، ففسيت آدم ، ولسيت جواه ، ولسيت الجحيم . وكانت سنة من السياحة
فيها من الانهاج مثلها فيها من الحرمان ومن المشقات . وكيف يكون انهاج مع مشقة ، وكيف
يلتئم الجبور والحرمان !

ليس من شأني التلاعب بالكلام والافكار . وانه ليؤلمني ان اترك القارىء مخدوعاً بكلمة
واحدة من كلماتي ، كما اني لا اطبق مخادعة انفس

كنت قبل الفرار الى البادية في شتاء اليأس ، بل في باب الربيع منه . ولكني لضعف روحي
او ادبي ، او اجتماعي - وقد يكون الضعف في الثلاثة - لم اثبت في الجهاد . فنتهقرت ،
ثم عدت ادراجي الى الشرق ، الى البادية العربية . فكنت فيها مفتبطاً على ما قاسيت ، محبوراً
على ما حُرمت

وكيف ذلك ؟ رأيتني في البادية نمشي في ظل الشجرة التي طاردتها في المدينة ، ورأيتني محفوقاً
بالتحفة والاكرام ، ورأيتني مستمتعاً بما كنت اتوق اليه - بالمجد - قبل ان امسح من مخياني
تابوته ، وقبل ان اجتمعت بجواه في الجحيم

اذاً ، في فراري الى البادية عدت الى الوراة ؟ اذا ما نظرنا في الامر نظرة سطحية اقول : نعم .
عدت الى الوراة سنة واحدة . وكان من العلم ، ومن الخدمة القومي ، ومن معرفة الله في تلك الدهناء
وتلك النفود ، ما يبرر هذه السنة التي تتخلل اليأسين ، يأس الشتاء ، ويأس الربيع

ايها القارىء العزيز - وما انت عزيز اذا كنت لا تتفهم كل كلمة افوها ، وما انا رسول
الحقيقة والخير اليك اذا كنت لا تحمى الصراحة والصدق دائماً في كل ما اقول . زاني لذلك افصح
كتاب النفس لا طلعك على صفحة من صفحاته الشخصية الخصوصية . وقد ادركت السر في انهاجي
في البادية ، ومستدرك المعنى كله في عنوان مقال هذا ، فلا تهمني بعد ذلك بالتلاعب
بالاحاسات والالفاظ

سنة في البادية انتهت بعزلة في الجبل ، ولكنها عزلة جثمانية فقط . فهناك الكتب والاوراق
والالاعيب الفنية تشاركني في هذه العزلة . وهناك الجرائد والمجلات تحمل الي اخبار العالم وانباء
الحياة في العالم

العالم الذي فررت منه هارباً والحياة التي نبذتها ! ترى الاول يجالسني كلما جلست استريح ، فيحدثني وهو يسم بسمه جنة فظيمة . وترى الثانية تحيطني سامرة ، فتترثر وهي تقهقه فقته الفجرة

العالم يقطع على العزلة ليقول : وما الحق لغير القوة . وما الرجال بغير المال . وما الاستعداد غير نوع جديد من الاستعمار . وما الالف والباه والجيم منه غير درجات في الظلم والاستبداد . وهذا حق ما زال الحق للقوة . خلق الضعيف لخدمة القوي . والضعيف من الامم والشعوب ، مثل الضعيف في الناس قطه انير

وهاكم قويتاً في العالم الجديد يسطر على اقوياء العالم القديم . يسطر بالمال ، بالذهب . وهاكم في الشرق الاقصى دولة تغلد دول الغرب بما يورد مصلحو هذا الزمان تطهير الغرب منه — بالقوة المادية وانشره الاستعماري . وهاكم الشرق الصيني يتن بين رأتين الحرب الاهلية التي تغذيها مراراً دول الغرب . وهاكم الشرق الهندي وفيه الاسد والقيل يتنازعان الملك ويتصارعان . والى شمال ذلك الشرق دولة تشرئب بعنقها الى الغرب وتود ان يكون لها في جوار الهند مالديبان في جوار الصين وهاكم في الشرق الادنى طرفي الحقيقة « ان الحق للقوة » : ففي انقرة نخط الحقيقة بأحرفها الكاملة ونلفظها : جمهورية كمالية . وفي طهران نخطها بماء الذهب بالحرف الفارسي ونلفظها : مملكة رضوية . وفي نجد والحجاز نخطها على الرمال بالاحدب الثار فتسفيها الرياح وهي تردد اسم ابن سعود . وفي الشرق العربي لا نكاد نخطها حتى يمحوها بصره الخنوع ويكتب مكانها : لتحي بريطانيا العظمى ! وهذه بريطانيا العظمى بعد ان استعادت شيئاً من الصولة التي فقدتها في الحرب الكونية ، تغلد الطامع في الشرق العربي نيشاناً ، وتهدد بالمدرعات والطائرات ، السيادة الوطنية ، والحرية التومية في وادي النيل وفي فلسطين

وفي هذه البلاد السورية كتبت الحقيقة بعشر لغات — لغات الطوائف — فكان للدولة المتندبة فيها عشر قراءات مختلفات بعضها عن بعض ، وكلها تعود الى مصدر واحد : الحق للقوة

بذا يحدثني العالم وهو ييسم بسمته الطبيعة المثقلة . والحياة تقطع على عزاتي متجيء سامرة وتقول : انما الحق لمن يحسن الرثاء ، وانقوة لمن يبيع في المداجاة . الحق والقوة والوجاهة والثروة والسيادة كلها للاسمعين . لاولئك الذين يقفون مطاطي الرؤوس امام كل كبير من السادة الرعماء ، وامام كل من وقف حولهم في ظلال السلطنت الثلاث ، المدنية والدينية والمالية

الحق والقوة والوجاهة والثروة والسيادة لمن يقول : نعم ، نعم ، نعم ، على اللوام . ذلك ان القوة الايجابية في الحياة هي القوة الغالبة . ولا يقول لا ، لا ، غير المصايين بعسر الهضم ، والمجانين ، والانبيا . اتبني المال والرأه ، والترف والجاه ؟ نعم ، نعم . اتبني السيادة والقوة والمجد ؟ نعم ،

نعم . سيارة تصدر فيها ؟ نعم . عصاً من الذهب وثوباً من الارجوان ؟ نعم ، نعم . عضوية في
المجمع العلمي ، اوراسة في البلدية ، او في الرابطة الادبية ؟ نعم ، سيدي نعم وفلسطين
يا سيدي من باريس ؟ نعم ، نعم . وأميراً صاحب كيس ؟ كيف لا . والحب لأبيس ؟ نعم ،
لأبيس . . . هي ذي الحياة ، حياة كل يوم ، تحبتي في الجرائد ، وهي تثرثر وتقمقه ، ثم تختفي وهي
ترقص الرقعة الجديدة

فأخرج من المنزل لأستنشق الهواء اتقي ولأحدث النجوم . وكأني بها ، وهي تدور
في افلاكها تذكر بمن وقف تحتها في غابر الزمان من الانبياء والعلماء ، وهي تقول : نعم ، نعم ،
لكل ما قلوه

وهل من حاجة الى ان اردد على مسمع القارئ ما قاله الانبياء ؟ فقد بدأ احدهم وصيادب « لا ،
لا » . ووقف احدهم امام عروش الظلم وقال : « لا ا » لا رايها . ومشي الآخر مع الفقراء وذوي
القلب الوديع فقال لهم مراراً : انا هو خير الحياة . ومن اضاع حياته من اجلي يجدها . وارضى
الآخر بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقلوا كلهم بالحب ، والسلام ، والاغاخ الانساني .
وجميعهم يشوامن الانسان

— ووقف الانبياء في ربيع اليأس فصرخوا من اعماق قلوبهم قائلين : سمع الانسان كلمة الله
وظل عتياً . وآمن الانسان ونزل ضللاً . ومشي الانسان على الائتئين وهو لا يزال في كثير
من صفاته مثل ذوي الاربع . وعلمناه التوحيد وهو لا يزال يقول : موسى وعيسى ومحمد
وبوذا واذرشت . وعلمناه المحبة وهو لا يزال يمتنع القنابل والمدافع والبارود . وعلمناه الرحمة
والعدل وهو لا يزال في سبيل شهواته ، يمشي على القلوب البشرية الدامية ، ولا يزال ، في سبيل
مطامعه ، اما شعباً او تملباً

وتنفض الانبياء ايديهم من الانسان . ولكن صرخات اليأس ، بأسمهم ، سمعتها القرون ، ورددتها
الاجيال . ردها في كل جبل افراد من الناس ، من اولئك الذين يعطون حياتهم ليجدوها ، وكان
لتردادهم فترات من مجديد العلاج في الناس . وكان لتجديد الصلاح ، ازدياد في صفوف من يقولون :
« لا ا » ومن يؤمنون في قلوبهم ، وفي اعمالهم . ولذلك ترى الواحة في ببناء الحياة تزداد اخضراراً
وتتسع كل مائة من السنين

كذلك يزهر ياس الانبياء وانا المقيم في هذا الوادي ، في هذا الزمان ، زهرة من ياس الانبياء

زهرة نور ، فذوت ، فتأثرت بوراقها ثم انتشرت من قلبها بذور الحياة ، تحملتم الرياح في السواحي الاربع من الارض

زهرة من يأس الانبياء حدثت بشاناً ، واضحى البستان ربيعاً ، وكان لربيع صوت ، هو الذي تسمع الآن احو صوت صاعد من ربيع اليأس
 — لله من ظلم يتجدد في حكومات العالم الحرة . لله من شعوب تنفر الى الماضي لتتص من عظام الاموات شيئاً من الحياة . لله من حياة تزداد اعباؤها كلما ازداد الانسان علماً ونوراً . لله من شعوب في هذا الشرق يرددون كلمات التوحيد وهم في الشرك يعمهون ، وفي الشقاق يهلكون ان في السماء الهماً واحداً وان تعددت اسماءه . وان على الارض لنا موعه ، مظاهر ، تتجم كل جيل في افراد من الناس ، فينبرون جادة من جادات الروح ، ويفتحون باباً من ابواب الاخلاص — الرقي — للام

هم ازهار ذلك الربيع ، ربيع يأس الانبياء . ولهم يومهم ، ولهم عملهم ، ولهم يأسهم المزهرة المنير . لولا ذلك لكانت حتى من الله . ولكننا من المؤمنين الذين لا يؤمنون بموا

ان يأمي لي ربيعه ، وان في هذا الربيع لكل امة من الام ، ولكل شعب من الشعوب ، زهرة طيبة الاربج

ولكني وان قالت أمي : العذراء ، اقول : الله

وان قال اخواني في الغرب : المسيح ، اقول : الله

وان قال اخواني في الشرق : بوذا ، اقول : الله

وان قال اخواني العرب : محمد ، اقول : الله

وان قال اخي الفارسي : آهورا ، اقول : الله

وان قال اخي الصيني : كنفوشوس ، اقول : الله

وان صوتي ، وان كان من اصوات اليأس ، لمن اصوات الله

ولولا هذه الاصوات ، المرسله من اليأس أشعة حياة لتجدد الامل والجهاد ،

لما مشت الاجيال الى المحجة العليا ، ولما اتسع اخضرار الراحة في البادية ، كل مائة

من السنين